الدين والمجتمع في الزمن التاريخي

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾

عبد الرحمن السالمي

عندما يتحدّث علماء الدين والاجتماع عن الدين بالمعنى الاصطلاحي فهم يقصدون به ثلاثة أمورٍ رئيسة:

ـ **الاعتقاد** أو **الإيمان** بالإلٰه الواحد الأحد. وهو عزّ وجلّ ذاتٌ متفردةٌ، وليس حصيلة جمع عدة أربابٍ، ولا رمزاً لكلٍّ جامع؛ فهو الخالق المبدعُ القادر، صانعُ السُنَن الطبيعية والإنسانية، والتي يدينُ له بها كلّ ما عداه إيماناً وخضوعاً واستسلاماً.

ـ **السوادُ** في الاجتماع الإنساني في القيم والعادات والأخلاق وأعرافُ التعامُل بين الناس. وبهذا المعنى فهو سُلطةٌ سائدةٌ؛ إنما الفرق بين هذه السلطة والسلطات الأُخرى أنّ أساسَها الإيمان الفردي. وبذلك فإنها سلطةٌ داخليةٌ تَهَبُ ذاك السوادَ طابَعَهُ الطَوعي والعامّ من دون إرغامٍ في المبدأ.

ـ **الحركيةُ** التواصُلية التي تتوقُ إلى المُشاركة داخل الجماعة، ومع الجماعات الأُخرى. والتشارُكُ هذا هو دعوةٌ

مفتوحةٌ بشـتّى الاتجاهات. وأساسُها التواصُلي والمنفتح الاشتراك في القيم الإنسـانية والدينية الأساسـية، وإمـكان التلاقـي والتوافُق فـي المصالح الأساسية أيضاً. وهذا التشارُكُ هو الذي سمّاه الفقهاء: الضرورات الخمس، وهي: حفظ النفس، والعقل، والدين، والعِرض أو الكرامة، والمِلْك. وبذلك يكـون الدينُ فـي بُعده التواصلـي دعوةً لصَـون الجامع والمشـترك لهذه المصالح الخمس الكبرى، ومنْع تجاوُزها أو الاعتداء عليها.

إنّ الواضح من آية «اشـتراع الدين» ـ والتي تتكرر عشرات المرات بصيغٍ مختلفةٍ ومتقاربةٍ في القرآن الكريم والسُّـنَّة النبويّة ـ أنّ مسـألة الدين هي أمرٌ إلهيٌّ المقصودُ به الوصول إلى نتيجتين: الرؤية الإيمانية الصحيحة إلى أصل الوجود والكَون ـ والنتيجـة الأُخرى: ما يترتّب على ذلك مـن تناغُمٍ وانتظـامٍ بين الفـردي والجماعـي أو الاجتماعي. أمّا النزعـةُ التواصُليـةُ والتَوق إلى المشـاركة فتصبح تحصيـل حاصل من اجتماع الإيمان والسواد الفردي والاجتماعي أو الجماعي. وهذه القضايا كُلُّها ظاهرةٌ فـي الآيـة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ..﴾ الخ. فالشَـرْع أو الاشـتراعُ هو الأمر الإلٰهي بعد الإيمان بالالتـزام، ثم يأتي الأمر الآخَرُ بِعَدَم التفـرق: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾. والواوُ هنا ليسـت أداةً مُغايرةٍ كالعـادة؛ بل هي بمثابة حرف الفاء الذي يُسـتخدمُ للترتُّب والترتيـب أو ترتيب النتيجة على المقدمـة. فإقامةُ الدين تعني المُضيّ في الإيمـان ومقتضياته. والإيمـانُ تصديقٌ لا يتعـدّد ولا يتنوّع؛ وإنما الذي يتنوعُ ما هو مُترتّبٌ عليه مـن التزام. ولذلك تُنبِّهُ الآية إلى أنّ الالتزام ينبغي أن يُضاهي في قوته ووحدته الإيمانَ ذاتَه.

وهكذا فإنّ التفرُّقَ **الأول** الذي حصل في الزمن التاريخي يعودُ لعدة أسباب:

ـ عدم قَبـول الدعوة إلـى الإيمان. وفـي القرآن الكريم ذكـرٌ كثيرٌ للمصاعب التي واجهها الأنبياءُ من جانب بني قومهم في دعوتهم، والجهد الذي بذلوه للإقنـاع بأصل الفكرة والالتزامـات المترتبة عليها في صَون

إنسانية الإنسان ووحدة مجتمعاته. والواقع أنّ عدم قَبول دعوة الحقّ هو الذي أدّى إلى الافتراق بالداخل نتيجة الانقسام حول الدعوة.

ـ **والثاني** الاختلاف حول مقتضيات الإيمان ومقتضيات الالتزام. إذ هناك مَنْ زعم أنّ الإيمان باللّه ينبغي أن يظلَّ أمراً فردياً، ولا تترتب عليه التزاماتٌ اجتماعيةٌ داخليةٌ أو عالمية. وإذا كان عدمُ قبول الدعوة اقتضى النضال الداخليّ أو الهجرة. فإنّ «الانكفاء» أو التنكُّر للمسؤوليات الاجتماعية والعامة المترتبة على دعوة الخير، كلُّ ذلك يتطلّب الاستحثاث والإقناع. وقد حاول علماء الدين التفرقة بين الدعوة التي تظلُّ فرديةً، والأُخرى التي تقتضي واجباتٍ اجتماعية أخلاقية ودينية، بالتفرقة بين النبي والرسول. وأنّ النبي ملتزمٌ فردياً؛ بينما يملك الرسول واجباتٍ اجتماعيةً وعامة. وهذه تفرقةٌ غير مبرَّرةٍ وتستند إلى ظواهر الآيات التي لا تذكر غير عددٍ محدودٍ من «الرسل» أو الأنبياء المُرسَلين؛ ذلك أنّ الإيمان بحدّ ذاته يحمل مسؤولياتٍ عامةً، سواء أكان المؤمن هو الداعيةُ الأول المُوحى إليه أم المؤمن الذي تلقّى الدعوة.

ـ **والثالث** الاختلاف أو الافتراقُ في الدين الناجمُ عن تعدُّد الأُمَم والشعوب؛ فبحسب القرآن إنّ الناس كانوا أمةً واحدةً فافترقوا؛ بيد أنّ الافتراق بسبب النزاعات الإثنية أو الاقتصادية، أو السياسية، لا يبرِّر الافتراق حول الدين؛ لأنّ الدعوة الدينية من نوعٍ آخر تتعلّق ـ بعد الإيمان ـ بالقيم العامة والمشتركة والتي ينبغي أن يلتقي من حولها البشر لا أن يختلفوا عليها.

ـ **والرابع** هو الاختلاف الناجمُ عن أسبابٍ أعمق تتعلّق بتعدّد الرسل أو تعدد الدعوات. واللّه سبحانه يوجّه نظرنا في آية «اشتراع الدين» والآيات المشابهة إلى أنّ التعدد في الداعين لا يعني تعدداً في الدعوة؛ فالدين واحدٌ، وهذا هو الأمر الذي ينبغي أن ينتبه إليه الأنبياءُ قبل غيرهم. ولذلك يقول القرآن مراراً وتكراراً: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي أنّ كلَّ نبيٍ يقول: إنه مُتابِعٌ لدعوة مَنْ أُرسل قبله، وإنّ سبب بعثته هو تبليغُ مَنْ لم تبلُغْهُ الدعوة، أو تصحيح ما جرى تحريفه.

وهكذا يظهر لدينا أمران: أنه رغم التأكيد الإلهي على وحدة الدين، فقد تعددت الديانات، وأنه ولكي لا يصبح الدينُ الذي تعدّد ذريعةً للافتراق والتنازُع فإنه ينبغي الانطلاقُ من مشتركات الدعوة، من الكلمة السواء، للالتقاء حول الالتزامات والآثار: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. وهذا يعني التنافُس في المنحى الإيجابي فيحصُلُ الالتقاء ويحصُلُ التضامُن والتعاون. لكنْ ما هي أذرُعُ وملتقيات «الخيرات» التي يذكرها القرآن، مثلما يذكر المفرد الآخر: «المعروف». فهناك معروفٌ يجبُ دينياً وأخلاقياً الالتقاء حوله، وهناك خيراتٌ يكونُ علينا العمل جميعاً على تحصيلها أو إنجازها في هذا العالم. وفي كلّ دينٍ ـ والحقّ يقال ـ دعوةٌ للخير؛ لكننا نحن المسلمين مُلْزَمون بالأَوَّليّة؛ لأنّ الدعوةَ هنا قرآنية. فما المعروف؟ وما الخيرات؟ إنّ الذي يتبادر إلى الذهن من المنطق القرآني والخطاب القرآني: الضرورات الخمس التي استقرأها الفقهاء من نصوص الوحي الإلهي، والتي تتضمّن صَون النفس البشرية، وصونَ العقل التدبيري، وصَون قيم الدين الجامعة، وصَون الكرامة الإنسانية، وصَون المِلْك الذي يحصّله الأفرادُ بالوسائل المشروعة.

وإذا كانت الضرورات الخمس هي المتبادر من «الخيرات» التي يطالبنا بها القرآن؛ فإنّ المتبادرَ أيضاً أننا نحن المسلمين مقصّرون بحسب أمر القرآن ودعوته، وبحسب التجربة التاريخية للأمة، وبحسب أو بالمقارنة مع مسيرة الأُمَم الأُخرى في العالم الحديث.

إنّ المسار المطلوب واضحٌ وإن يكن السير فيه تكتنفه صعوباتٌ جمة؛ فالضرورات التي ينبغي صَونُها، علينا أن نوجد السُبُلَ من أجل القيام على حمايتها في مجالنا الحضاري والثقافي والسياسي. وهذه هي الطريقةُ الوحيدةُ للسير بالتناظُر مع ذلك في دروب التشارُك مع العالم. فعندما تريد مشاركة أحدٍ يكون عليك أن تملك بعضَ ما تستطيع التشارُكَ فيه؛ لأنّ أحداً لا يتصدقُ على أحدٍ بشيءٍ في المجال العالمي الذي تكتنفُهُ الصراعات والتجاذُباتُ ووجوه التنافُس المشروعة وغير المشروعة.

قبل الشـــراكة إذاً أو التفكير فيهـــا ولنصبح جزءًا معتبـــراً في حياة العالم المُعاصر، ينبغي أن يســـود لدينا المعروف، وتسود الخيرات في حياتنا مجتمعاتٍ ودولاً، وأفراداً وجماعاتٍ وعلاقات. ولدينا ميزاتٌ كبرى اليوم، ونواجه عقباتٍ وعوائق وتحديـــات. وتتمثل الميزات في قُرب أمتنا من القرآن وعنايتها بدينها وبالانتظام فـــي عباداته وأخلاقه. أمّا الميزةُ الأُخرى فالـــذي أَنعم اللّٰه ســـبحانه وتعالـــى علينا به من ثـــرواتٍ يمكن بالإحسان في إدارتها وتوزيعها واستغلالها إعادة صياغة أُطروحة التقدم والعمـــل الصالح في شـــتى مجـــالات الحيـــاة. أمّـــا العقبـــات والعوائق والتحديات فتظهـــر في الافتقار إلى الإرادة القويـــة والجامعة والضابطة والهادفة، وإصرار الدول والأُمم المجاورة وغيـــر المجاورة على التدخّل في شـــؤوننا باتجاه اصطناع التفرقة والانقســـام، وإنتاج مناطق النفوذ ـ وأخيراً الاضطراب الحاصل والناجم عن التغـــوُّلات في المجال الديني، وفي المجالات الأُخـــرى، بحيث صار الدين، وصـــارت الأوضاع العربية، مشكلاتٍ عالمية.

إنها الإرادة القوية التي تســـتهدي الأمر القرآنـــي بإقامة الدين وعدم التفرق فيـــه، وهي التـــي تبقى المخـــرج والمنقذ من حالات الاســـتنزاف والاختراق.